المـــــهرجـــــان

يسرى الأيوبي

دمشق في مهرجان، دمشق في عيد. الناس يرقصون ويغنون في الشوارع، الأعلام والزينات وعناقيد الكهارب في كل مكان. هتافات تدوي في أرجاء الفضاء. لمن هذه الهتافات؟ أسهم نارية تفرقع في الجو ثم تهوي مظلات نور ملونة بألف لون ساحر غريب. ماذا هناك؟ وفيم فرحة دمشق؟ انها عارمة زاخرة كالموج. وانسل شاب غريب بين الجموع. أيمكن أن يكون غريبا؟ إنه إبن دمشق الباسلة. ولكن لماذا يشعر بالوحدة والغربة؟ ووقف شارد البال ينظر الى الأيدي الملوحة. وفجأة سمع اسمه يردد. إن هذا حلم، لايمكن أن يكون الاّ حلما.. وهتف أحدهم "هاهو ذا أنظروه!" واندفع الناس نحوه، وهزه جاره من كتفه. "شعب دمشق جاء يحييك، ما بك لاتتحرك؟"

وأحس الشاب بشيء يكبر في قلبه ويغمر بالدمع مقلتيه. انه شاب مغمور لايمكن أن يبالي به الناس. ولكن الأيدي لم تلبث أن حملته على الأعناق وسارت به وقد تملكته الدهشة حتى لتقطع أنفاسه. وتدافع الرجال نحوه يحيونه. يالله ! انهم جميعا وجوه مألوفة لديه. انهم طلبته وقد غدوا رجالا. وصافح الأيدي العزيزة الممتدة اليه. هذا أمر يطول! وعرك أذن شاب ضاحك السن وقال له: "هل تذكر كم كنت تعذبني ياسعيد؟ كنت صبيا شقيا"

حملوه الى منصة وهتفوا به:

– أخطب بنا يا أستاذ!

ووقف الشاب يفرك يديه وهو يحس بالخجل والإرتباك وبالعرق البارد يطفر من جبينه. انه لم يتهيأ لتلك اللحظة. انه يشعر بالحرج كما شعر يوما أهمل فيه تحضير دروسه وجاءه المفتش. كان لديه حينذاك عذر في إهماله، لأنه سهر طوال الليل قرب زوجته الصغيرة التي تضع مولودها الأول. ولكن من يعذر؟ وتلعثم قائلا:

– أعفوني ماذا أقول؟ ليس لدي ما يقال. ان الإرتجال موهبة لا أملكها.

وتعالى الهتاف:

– كلمة واحدة يا أستاذ.

– يعيش الشعب، وتحيا حرية الشعب!

ولكن صوته لم ينطلق، أحس به حبيسا لا ينطلق، بل يختنق في حنجرته.

ودوى التصفيق: "يعيش الشعب وتحيا حرية الشعب".

كانت أصواتهم تهدر معا. كيف سمعوه وعرفوا مكنون صدره؟

وارتفع صوت سعيد من بين الجموع.

– حدثنا بقصتك!

وابتسم الشاب وقال:

– لاتزال كما كنت يا سعيد شيطانا صغيرا تحب اللهو والتسلية.

وارتفعت الأصوات من مئات الحناجر:

– حدثنا بقصتك، حدثنا بقصتك!

– لست أذكر أن لي قصة ما، عم تتحدثون؟

– أنت تنسى يا أستاذ.

– أتسخرون مني يا ملاعين؟ ورشقوه بالزهر وقالوا متضاحكين:

– تعال أنظر! اليوم افتتاح معرض الشعب في دمشق..

دخل قاعة كبيرة.. لا! إنها ليست قاعة، إنها مدينة، بل هو يشعر أنها أرض سوريا بأسرها، عجت باللوحات والتماثيل.. أيمكن أن تكون هذه لوحات وتماثيل؟ انها تكاد تنطق، تكاد تتحرك، بل هي تنطق وتتحرك بالفعل. هنا البرلمان يئن وقد عشش على بابه العنكبوت.. من هؤلاء الصبايا اللواتي انتثرن في ساحته وكأنهن زهرات يانعة هصرتها يد الريح؟ انهن الحريات، الحريات الجميلة السبع التي مثل بها أشنع تمثيل، واحدة قطعت أطرافها، وأخرى لسانها، وغيرها سملت عيناها، وواحدة جريحة مشرفة تئن وتمص التربة الجافة فلا يبل لها صدى، وأخرى تشد الشعر في جنون.

وهذه لوحة كبيرة هائلة يدوّم فيها الذباب والناموس. إنه يدور، إنه يلسع، إن له لسع النحل، أيمكن للفن أن يتطور حتى ليشابه الحياة؟ ان الشاب لم يكد يقترب منها حتى أحس بلسعها، إن جسمه يتورم. يحس به متورما.. وما هذه

الوجوه البائسة الهزيلة التي تفرج من وراء ضباب الناموس والذباب، تشرب ماء المستنقع وتأكل الحشيش وتنام في بيوت اللبن مع الدواب؟

اللوحة تصدر أنغاما كالنواح، كالنعي، وينبعث منها رائحة خنزيرية. إنها رهيبة هذه اللوحة تمزق القلب أسى. إنه لايستطيع الوقوف طويلا قربها.. أي فنان عبقري يائس رسمها!

وهذه لوحة ضارب المعول.. إنه شيخ تخدّد الوجه منه وهو يعمل في الأرض، في الحر والبرد، في الصحو والأمطار، وعندما تتكدس ثمار أتعابه يأتي رجال لهم وجوه الجراد ويلتهمون جهده. ويجلس هو قرب كوخه ينظر اليهم كسير القلب مهيض الجناح.

وهذه لوحة العمال المسرحين، العمال الذين ينتجون جميع قيم الحياة، جلسوا عند باب المعمل المغلق، وقد أطرق الحزن رؤوسهم، وأحنى ظهورهم، وأسهم منهم الأنظار، وأدمع العيون وشرد اللب. وهم يفكرون بالغد الغادر والأفواه الجائعة ونوم الأرصفة ومد اليد في طلب الإحسان!

وحانت منه التفاتة الى تمثال. أطال اليه النظر وأحس برعشة تهز كيانه. انه تمثال للأمومة الجريحة التي ينتزع منها فلذة كبدها ليلقى به في ظلام السجون! انها تتشبث به بكل ما تملك من قوة، ورجال قساة، جهلة، جبناء، مرتزقة يجرونه وواحد يضع في يديه جوامع الحديد، وآخر يرفع اليد الغليظة ليصفع الأم. سمعها الشاب تهتف بكل ما تملك من قوة:

– انه من أجلكم يناضل، ومن أجل أبنائكم أيها التعساء! أيمكن هذا؟ الحجر يتكلم! انه يصيح! انه يدوي كالرعد!

وهذه لوحة صغيرين يتشاجران. فيم يتشاجر الصغيران؟ في سبيل برتقالة. في سبيل برتقالة مقشّرة تمرّغت في التراب أدمى أحدهما الآخر، وغير بعيد يتكدس البرتقال في البيادر أكواما عفنة ويحرق أو يدفن في التراب!.

وهذه لوحة صغار يجمعون أعقاب السجائر، وعليهم أسمال بليت فيها الرقع، من حول فندق لم يشاهد الشاب له مثيلا في روعة البناء وفخامته. والحارس يطردهم حتى لايؤذي منظرهم نزلاء الفندق المترفين.

وتحسس الشاب بذلته الأنيقة. ارتدى أجمل ما لديه للمهرجان ولكنه يشعر الآن بنشاز لباسه في هذا المكان، انه يخجل منه، انه يسحب ربطة عنقه ويواريها جيبه كأنما هي شاهد جريمة، ومع ذلك يحس بها وكأنها تشدد الوثاق على رقبته، ويدعك قبة قميصه البيضاء الناصعة كما يدعك عقب لفافة يخشى منها اندلاع النار، ومع ذلك ما زالت تؤذيه كأنها أشواك.

إنها قاعة واسعة لا يمكن أن يمرّ على ما فيها من لوحات، ولكن تمثالا فيها جعله يحث الخطى ويسرع بالخروج.

تمثال قرد يقفز فوق أكتاف الناس الى الألوهية!

دخل قاعة أخرى بعد تردد. يكفيه ما شاهد من التعاسة ولا يحتمل قلبه لمزيد. ولكن هدير الموسيقى شدّه الى الداخل. انها ليست قاعة، إنها دار أوبرا. كانت مزدحمة بالناس، بالناس من كل الطبقات جاؤوا ليستمعوا الى أوبرا الثورة. وضجت الموسيقى وهدرت أغنية من جميع الأفواه، فأحس بصدره يكبر حتى الإنفجار. الفرح الكبير موجع كالألم الكبير، ورقص الشعب بأسلحته، بالمطرقة والفأس والمعول والمنشار وجذوع الشجر وعمد الحديد والأبواب المخلوعة، وكل من لم يحظ بأداة حمل الحجارة من كل الآحجام. كان في الوجوه التي صلبها الشقاء عزم لايفل وإرادة لا تلين. وسمع الشاب دوي مدافع، ورأى سحب الدخان. ماذا جرى؟ كان هناك من يشده ذات اليمين وذات الشمال، كان الوحيد الذي لا يحمل بيده أداة، ومع ذلك كان هناك من يوجّه له اللكمات بقبضة حديدية، وأحسّ بألم لايطاق كأنما أصيب في مقتل. هل أصيب هو الآخر وارتمى صريعا كمئات من أبناء الشعب؟ هل هذه أوبريت، مسرحية، فيلم سينمائي مجسّد يمثل دورا فيه أم هو واقع؟ كم أصبح الفن متطورا! إنه يتألم ليس في هذا من شك، وألمه كالنزع. إنه يشعر بغيبوبة، هل هي سكرة الموت؟ ولكن عقله يعي، إذن فهو حي.. ثم يشعر براحة كأنه غمر بماء بحر دافئ، ليس براحة فقط، بل بنشوة لاتوصف.. انه يدخل قاعة أخرى، بل هي غوطة دمشق، بل هي جنة لم يعرف خياله لها مثيل. إنه يشمّ فاغية الزهر ويسمع موسيقى رائعة، فيها السلام وفيها الحب وفيها الفرح. إنها موسيقى ضاحكة، ككركرة الموج على ساحل اللاذقية، نقية كذرى قاسيون.

الأشجار تتدلى بثمارها وتربة الأرض حمراء كأنها نخلت بمنخل. إنه يشعر بجفاف الحلق فيمدّ اليد الى الثمار الناضجة.. ياعجبا للناطور لم لايلحقه برعد شتائم؟ وهذه الخمائل، خمائل الزهور في كل مكان، إنه يسمع أهازيج الأطفال مع شدو البلابل وإرنانة العود. إنه يسمع ضحكاتهم الصافية كالبلّور. ولماذا لا يضحك الصغار ولهم الأراجيح والمزالق والدوامات والألعاب ومسارح الدمى؟ تحولت الغوطة الى ملعب كبير واحد دون حواجز للأطفال. ليس فيها الاّ مدارسهم ومطاعمهم وملاعبهم ومراح طفولتهم منذ أن يدرجوا حتى يشبوا.

انفلت صبي من بين إحدى حلقات الأحداث الراقصين، وهرع نحوه وتعلق بعنقه وهتف "بابا!".. لا إن الصغير اخطأه.. ليس له إبنا في مثل سنه.. ولكن ياللغرابة! إنه يشبهه كثيرا، بل هو طبق الأصل من صورته المعلقة على جدار بيته.. وتبعه حدث آخر وقال:

– الم تعرفني يا عم؟ أنا ابن عامل المطبعة، جارك.

تذكر جاره الذي كان يسكن في غرفة من قبو المنزل المظلم الرطب. ولكن لم يكن لديه الا طفل صغير كان يسمع نحيبه كل ليلة، نحيبا كالأنين، نحيب الجوع قبل أن يتلاشى الصوت متعبا وينام الطفل على الطوى. أغلقت المطبعة لأن سوريا ليست بحاجة الى إشعاعات نور، وتعطل عامل المطبعة المسكين، فهل يمكن أن يكون هذا الصبي ابنه، ويعيش مع الأطفال السعداء؟ إنه يتقدّم منه ويسلم عليه بثقة واطمئنان ويقول:

– مرحبا عمو!

– مرحبا يا بني، كيف حال والدك؟ وغامت عينا الفتى الصافيتان وقال:

– قتل بالثورة!

آه أية ثورة هذه! أية أحداث جرت وهو لا يدري بها؟ إنه أصبح كأهل الكهف قادما على هذا العالم من البعيد البعيد.

وسار معه الفتيان. ما احلى توثبهما كالمهور! فيهما الصحة والوسامة والمرح.. وما أروع الذكاء يشع من عيونهما! يا عجبا لهما يفهمان في كل المواضيع، فهما واعيا غير مشوه: في السياسة والتاريخ والعلوم. ما أغزر ما

يعرفان! إنهما يتفوقان عليه، وما كان في سنّهما الاّ جاهلا أعمى. سارا معه شوطا طويلا في أرجاء هذا المكان الواسع الجميل، الباهر الجمال، في هذه الجنة من عمل الإنسان، في هذه الجنة للإنسان العامل. في كل ركن يطل تمثال رائع النحت كأنه من صنع رفائيل. وما صانعوه الا فتية من كلية الفنون على مشاريعهم يتدربون، ويجملون بإنتاجهم حدائقهم الغناء، ومسارحهم ومدارسهم وبيوتهم ومحطاتهم.

كانت هناك أبنية مشادة لها طابع كل الأقوام وكل العصور، فسأل: "لمن هذه القصور؟"

–لأبناء الشعب العامل.

– اليست للمرابين والنصابين والمرتشين والمهرّبين والمشعوذين؟

– لا مكان بيننا للطفيليين.

ما أروع دمشق لا باغية ولا معتدية، لا تتجمل بأسلاب غيرها، ولا تنحر جهود َبُناتها، ولا تكرّم حثالاتها!

سأله ابنه:

– أتحب أن ترى الضاحية؟

– ولكن كيف؟ لاأرى سيارات في المدينة.

ضحك الإبن وقال:

– كل مواصلاتنا تحت الأرض.

كانت الأنفاق ساطعة بأنوار الكهرباء وجدران المحطات مغطاة بأروع اللوحات، وكأنها جدران الكنائس. وفي الضاحية رأى مدينة أخرى، لاتلفها سحب الدخان، ولا يدوي فيها هدير الآلات. إن مدينة العمل مدينة بهيجة تسكب فيها الشمس أشعتها من نوافذ كبيرة، وفيها مكيفات الهواء، وماصات الدخان، ومكبرات للموسيقى. كانت الآلات من بلاتين يلمع، تقوم بعملها الذاتي بصمت ودقة. أصبحت الآلة في خدمة الإنسان، ولم يعد الإنسان في خدمة الآلة! لم يعد الإنسان يقوم بالأعمال الرتيبة التافهة، بل بالعمل الإبداعي البهيج. ولم يعد يعمل آناء الليل

وأطراف النهار، بل بعض الوقت فيحل مكانه غيره. ويتفرغ لأسرته وراحته وتسليته وتثقيف نفسه وتطوير مجتمعه.

كانت هناك مطاعم رأى فيها موائد مصفوفة وعليها مفارش ناصعة وباقات زهر ندية. ولم يكن روادها كثيرون، بل غالب الناس يفضلون شراء طعامهم الجاهز المحدود الأسعار، ويذهبون ليطعموا في بيوتهم على موائدهم الخاصة بين ذويهم. أما أولئك العزاب الذين يفضلون مصاحبة أقرانهم فكانوا يفضلون المطاعم المفتوحة، يأكلون الوجبات الغنية الكاملة، ويتراشقون بالنكات ويضحكون. ثم يرتشفون القهوة ويقرؤون الصحف أو يلعبون النرد، أو يتناقشون في أخبار المجتمع.

آه كم هو مشتاق للبحر! لميناء اللاذقية الذي يحبه، فما أسرع ما وصل اليها في قطار هوائي قطع به المسافة بلمح البصر. ما كانت هي الميناء الذي عرفه، بل عقد لؤلؤ على جيد البحر. إن القصور التي تستريح على شواطئه من كل نسق ومن كل فن هي للجميع، لكل أبناء الشعب العامل. كانت هناك بناية شامخة هي أضخم الأبنية هناك، وعرف أنها للعاملين في صناعة السفن. هل أصبح في اللاذقية صناعة سفن؟ كل طابق دهنت جدرانه ونوافذه بلون يؤلف مع الطوابق الأخرى قوس قزح جميل. وهذه البناية الزرقاء هي للعاملين في صناعة حفظ الأسماك. إن طابقها الأول هو متحف للأسماك، متحف بديع رائع.. الأسماك من كل لون وشكل تطل من وراء زجاج أحواضها في الجدران. ولكن ما هذه السمكة الهائلة؟ من تشبه عيناها الجاحظتان؟ ولكنها ليست سمكة، إنها أفعى، إنها كوبرا!

ليهرب من هذا المكان! إن العينين الجاحظتين تلاحقانه، تسمرانه في مكانه كأن فيهما مغناطيس. لو أنه يسبح في البحر ويستلقي على الرمال التبرية! آه إن الرمل يحرقه، إنه يحس بالحروق الكاوية في كل أنحاء جسده!

ليذهب الى الجبال، الى صلنفة أو كسب حيث الهواء النقي البرود يسكب الحياة في عروق مشرف. إنه يحس بنفسه داني الأجل، معيا في الرمق الأخير..

أصبح هذا المصيف الفقير بلد المشافي والمصحات. ولكن لم يشعر بهوائه ثقيلا يكتم الأنفاس؟

إنه يطير بجناحين في أجواء سوريا، مدن جديدة قد شيّدت، ومدن معروفة تغيّرت معالمها. جبال جرداء أصبحت غابات صنوبر وخمائل كرز وجنات تفاح.

سوريا تسبح على بحر من خيراتها الكامنة. إن آبارا للبترول اكتشفت ومصافي أنشئت ومناجم عذراء نقّبت وآثارا رائعة نبشت، ومراكز كهربائية استحدثت على ضفاف الفرات والعاصي وبردى. الجرارات والحاصدات والمذاري تحيي سهول سوريا، والماء النقي والكهرباء يصل الى كل مكان فيها.

رأى المستقبل في نماذج جبصينية صغيرة في تلك القاعة الهائلة. إن خطاه تقوده الى غرفة أخرى. لماذا يشعر بالإنقباض؟ لماذا يحس بأنه يجذب من شعره رغما عنه كأنما هو قطعة حديد سلط عليها مغناطيس؟ من هؤلاء الذين يقربون رؤوسهم ويتسارون؟ إنهم يضحكون ويكشفون عن أسنان ذهبية، ولكن أية رائحة تنبعث من أفواههم النتنة!

– تعال انضم إلينا!

وكمّم أنفه وأشاح بوجهه يريد الهرب. عرفهم! عرفهم من اللكنة الغريبة في ألسنتهم وهتف مغضبا:

– إنني أعلم لغة بلادي، ولا أعلم خيانة بلادي!.

آه ماذا حدث؟ لا بد أنه أخطأ الطريق، أين يسير؟ أين دليله؟ إنه يمشي في دروب الظلام. إن أيدي شيطانية تحمله الى أعلى وتهوي به الى الأرض الصلبة. ان عيونا جاحظة كعيني تلك السمكة التي رآها منذ حين، تحدق به مهدّدة. وتعضه أسنان كلبة في كل مكان من جسده. وهتف بصوت مبحوح:

– لست أرهبكم.. إنكم قساة، جهلة، جبناء، مغرورون. أعرف ما تضمرون، فمتى كانت القسوة الاّ حليفة الجهل والجبن والغرور؟ إنكم تعذبونني لأني لست مثلكم. أنا بشر أتألم وأصيح كالبشر، ولكنكم لن ترغموني على شيء، لن تنالوا بغيتكم مني.

– هيا اعترف!

– ليس عندي ما أعترف به.

– ستعترف رغم أنفك، إنك لا تحتمل كفّين.

– سأحتمل! لاأحب أن أطعن بحق أحد من الناس ولو كان حقا، فكيف به زورا؟

– هيا احتمل إذن!

– آه إنكم كفرة!

وفتح الشاب عينيه. ماهذا الضوء الساطع يزغلل بصره؟ هل كان يحلم، أهو ينام في منزله قرب زوجته وطفله وكل ما رآه كابوس رهيب يتلاشى إذ يفتح عينيه؟ ولكن لا. إن يديه موثقتان، والحروق تكوي جسده. إنه يشم رائحة الشواء!.

وطالعته وجوه منكرة تلمع في أيديها أسياخ ملتهبة. وجوه فقدت كرامة الرجولة ومعاني الرحمة واستذأبت، وحدّقت فيه عينان جاحظتان:

– وقّع!

– على ما ذا أوقّع؟

– على اعترافك.

– إنني لم أعترف بشيء.

– أتتراجع عن اعترافك أيها الوغد؟

– أنا لم أعترف بشيء..

وأحس بشيء رهيب.. بألم كاو يفوق التصور الإنساني، وأحس بروحه تنتزع من بين جنبيه وأصابته غاشية الموت.

– أمتني ياإلهي إنني لا أحتمل، أو مدّني بالقوة كي أحتمل. ومع ذلك لاأريد أن أموت قبل أن يتحقق حلمي.

وخيل اليه أنه يطير في أجواء دمشق ويرى زوجته تنظر اليه كالمصعوقة، وتغطي بيديها وجه ابنه الصغير."لماذا؟ أهو مشوه؟ أترى منظره رهيب!"

إنه يطير.. إن دمشق في مهرجان وطلبته يهتفون.. إنه يقف على المنصة، ويتقدم سعيد منه ويرفع الستار عن تمثال.. إنه في حفل تأبيني.. ماهذا؟ لمن التمثال؟ إنه يشبهه كثيرا هذا التمثال، بل إنه نفسه التمثال.